أئمة المساجد وخطباؤها

فى ميدان الخدمة الاجتماعية

لحضرة صاحب المعالى عبد السلام الشاذلى باشا وزير الأوقاف

"أنجح الدعايات وأفعلها فى النفوس ما كان أساسه الدين . وأكثر القرويين لا يقرأ الصحف ولا تصل اليه الدعايات المكتوبة ، فلا وسيلة إلى إصلاح القروى الا الوعظ والاقناع . ويرى حضرة صاحب المعالى وزير الأوقاف أن خير من يقوم بهذه المهمة إنما هم أئمة المساجد وخطباؤها وها هو ذا يوضح لهم حقيقة الرسالة السامية التى يجب أن يقوموا بها فى ميدان الخدمة الاجتماعية" .

"المحرر"

هزوا القرى من كهفها ورقيمها ... أنتم لعمر الله أعصاب القرى

الغافل الأمىّ ينطق عنكمو ... كالببغاء مرددا ومكررا

يمسى ويصبح فى أوامر دينه ... وأمور دنياه بكم مستبصرا

لو قلتم اختر للنيابة جاهلا ... أو للخطابة باقلا لتخيرا

فى هذه الأبيات من الشعر لخص المرحوم شوقى بك مهمة أئمة المساجد وخطبائها وبين مدى ما يستطيعون القيام به فى ميدان الإصلاح الاجتماعى . فهو يعدهم "أعصاب القرى" ويراهم الأئمة الذين يتأثر القروى خطاهم ، ويسير على هداهم ، ولا يستنير فى أمر الدين والدنيا بسواهم .

واذ كان وزير الأوقاف هو القائم على أمر المساجد وخطبائها ، وكان هؤلاء الخطباء هم حملة رسالة الدين الى المسلمين فقد وجب أن أهيب بهؤلاء الرسل أن يدركوا حق الادراك ما هى رسالتهم وما السبيل الى أدائها أداء ينفع الناس ويرضى الله .

ليس كل ما يطلب من إمام المسجد وخطيبه أن يلقى خطبة الجمعة قائمة على الأركان الخمسة، آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، فى عبارات كاد الناس يستظهرونها لفرط مالاكتها الألسن، ثم ينبرى ليؤم الناس فى الصلاة. واوكان هذا كل ما تريده وزارة الأوقاف من رسولها لكان سهلا أن يقوم به أى رجل من العابدين الصالحين، وكثير ما هم.

إن الوزارة تختار أولئك الرجال من علماء الأزهر الشريف بعد امتحان تعقده لهم، وتفاضل بينهم ثم تنتقى أوسعهم علما، وأفصحهم لسانا، وأقدرهم على الخطابة والتأثير. واشتراطها فى الخطيب هذه الشروط معناه أنها تريد استخدام كل هذه المزايا لتوجيه الناس وإرشادهم ومعناه أن للخطيب عملا واسع النطاق ومهمة أبعد من الوعظ التقليدى ومن التحدث فى فرائض الوضوء وأركان الصلاة ونقل ما فى الكتب من تفسير لبعض الآيات والأحاديث.

معناه أن الخطيب معلم ومستشار ورقيب على أحوال القوم وعاداتهم وعيوب حياتهم، وحكم فيما ينشب بينهم من خلاف، وقدوة حسنة لهم فى أمر دينهم ودنياهم، فلا فضل له اذا كانت خطبه على المنبر نماذج مطبوعة أو مروية تصلح لمخاطبة كل أنواع الناس وتصدق على كل عصر وكل جيل. بل هو مطالب فى خطبته المنبرية وفى أحاديثه العادية أن يضيف الى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلماما بما يراه بعينه من علل القرية والعيوب الخلقية والاجتماعية المتفشية فيها، وله من معارفه الدينية ما يؤيد به هذه الفلسفة الدنيوية ويقيم الدليل.

فى كل قرية فريق من الأعيان اللاهين والشبان العابثين الذين يريقون أموالهم ويخسرون أملاكهم وضياعهم فى طاعة الشهوات من خمر الى ميسر الى عبث بالأعراض.

وفى القرى فقراء لا يزجرهم فقرهم عن مجاراة الموسرين فى ميادين الفجور، فهم ينفقون فيها قليل أرزاقهم، ويحبسونه عن زوجاتهم وأولادهم فيتركونهم عراة حفاة بائسين.

وفى القرى رجال يكادون يحترفون الزواج والطلاق، فينكبون بين الحين والحين أسرة بتطليق إحدى بناتها وتشريد أولادها، ويؤذون أخرى بخطبة إحدى نسائها على غير كفاءة للانفاق، أو على غير صلاحية لمعاشرتها.

وفى القرى تنافس يقع بين أفراد الأسرة الواحدة على منصب العمدة أو الشيخ كثيرا ما يتفاقم حتى يلهى أصحابه عن صلة القربى ورابطة الأخاء، فتشتد البغضاء وتسيل الدماء.

وفى القرية فقراء لا يجدون الطعام إلا بشق الأنفس ولا يعصمهم من برد الشتاء كساء مدفئ أو مأوى أمين، وبجانبهم أغنياء قادرون على تخفيف بلواهم ولكن البخل قد أقام بينهم وبين الرحمة حجابا كثيفا.

وفى القرية مخرفون ومخرفات يلجأون فى تطبيب مرضاهم إلى الرقى وأفاعيل السحرة والمشعوذين، وعلى مقربة منهم مستشفيات قروية وعلاج وأدوية بغير ثمن ، لكن جهلهم يجعلهم عن ذلك كله فى معزل، ويغريهم بالاسترسال فيما هم فيه ، فلا تزال الأمراض تفتك بأجسامهم ويتوارثها الأبناء عن الآباء .

وفى القرية غفلة عن النظافة والنظام ، فكثير من الفلاحين يضجع أولاده إلى جوار بهائمه ، وأكثرهم لا يبالى أن يكون حافى القدمين عارى الرأس، وهو ينشئ بنيه وبناته على هذه القذارة وهذه الفوضى، مع أن عبء النظافة والنظام يسير لو سمع من يلقنه أن النظافة من الايمان ومن يحذره عواقب الفوضى والاهمال .

وفى بعض مجالس القرية الغيبة والنميمة والدس والحض على شهادة الزور .

وهكذا تقع العين كل يوم على أمثال هذه النقائص التى لا تكفى القوانين الوضعية فى زجر الناس عنها وإرشادهم إلى طرق الخلاص منها .

فمن لهذه المهمة الجليلة إلا هذا الواعظ أو ذلك الخطيب الذى ينطق بكتاب الله، وبحديث رسوله ، وبسنن خلفائه وأتباعه، ويضرب للناس فى كل هذه الشئون مختلف الأمثال .

إن سلطان القانون إنما يقع على الأجسام ، أما سلطان الدين ودعاته فينفذ إلى القلوب محبوبا قبل أن يكون مرهوبا .

وكم من قلب طبع على الشر وتغلغل فيه شيطان الفساد، حتى إذا عمد اليه المصلح بعلاج النصح والموعظة الحسنة، وأرسل عليه أشعة من هدى الدين، رق وخشع وانبعثت فيه الرحمة وحب الاحسان، وأفاض على الانسانية خيرا جزيلا .

أنت أيها الخطيب، الأمين على هذه الرسالات كلها، فلست للوظيفة وحدها، ولا للإمامة والخطابة الرسمية وحسب، ولا لوزارة الأوقاف دون سواها، بل أنت لوزارة الداخلية حين تقول للمختلفين " إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم " فتنزع البغضاء من صدورهم وتردهم عن الإجرام والعبث بالأمن . وأنت لوزارة الدفاع حين تقول لمن لا يعرفون حق الوطن على بنيه " وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم." فتؤمن الخائف وتدفع المتردد ، وتفهم الناس لذة الجهاد وثواب الاستشهاد . وأنت لوزارة الصحة حين تروى للناس قول الله سبحانه " إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " وحين تمضى فى شرح هذه النصيحة الإلهية مطبقا إياها على مختلف نواحى الحياة

من مأكل وملبس وسكنى وطب وعلاج ، فلا يهمل الناس تنظيف أنفسهم ولا تنظم حياتهم ولا مداواة مرضاهم . وأنت لوزارة المعارف حين تجعل مجالسك دروسا تعلمهم فيها مايجهلون من شئون المادة والروح ، فتعوضهم عن بعض ما فوته عليهم حرمانهم من التعليم المدرسى المنظم ، وتفتح أذهانهم للتفكير والاستيعاب ، وتطلعهم على شيء مما يجرى من حوادث العالم وعلاقات الأمم ومايتصل منها بمصر . فأنت فى هـذا جريدتهم الشفوية ، ومذياعهم الدائم ، إذ أن أكثرهم لا يعنى بالجريدة ولا يملك المذياع . وهم إذا وجدوهما فليسوا بقادرين على تفهم ما يكتب وما يذاع ، إلا أن يتولى الشرح والبيان لسان رجل الدين الذى يحبونه ويصغون اليه بآذانهم وقلوبهم ، ويعتقدون أنه لا ينطق عن الهوى ، وأن كلمته هى وحى الله وبلاغ رسوله . وكلما كان هـذا الناصح متحليا بالاستقامة وبالتقوى ، متحرجا من الغيبة والنميمة ، لبقا فى حديثه ، مخاطبا الناس على قدر عقولهم ، كانت نصيحته أقرب الى القبول ، وكانت آراؤه وفتاواه فى أمور الدين والدنيا سائغة فى النفوس . وأنت لوزارة العدل حين تنصب نفسك أو ينصبونك قاضيا عرفيا يعرضون عليـه مشكلات الأسر ، فتحول بوعظك ونصحك دون طلاق ، أو تعين على زواج . وقد يعرضون عليك بعض معـاملاتهم ومداياناتهم فيغنيهم قضاؤك عن التحاكم الى المحكمة ، أو عن ارتكاب تزوير يؤدى بصاحبه إلى العقاب وأنت لوزارة الشئون الاجتماعية تتفهم دعوتها ومشروعاتها الإصلاحية ، فتعمل على نشرها مستعينا بمـا تضمنه دينك من وصايا الإصلاح . والإسلام دين الاجتماع ودين العمران ، والقرآن سبيل الهداية فى الأولى والآخرة ، ما فرط فى شيء ولا ترك اتباعه ومدركيه فى حيرة من أمر . فهو لم يقف عند تلقينهم العبادات ، بل نظم لهم المعاملات ، وأقام حياة الأسرة على أقوى الدعائم ، ورسم لهم حتى آداب المعاشرة والمحادثة والتزاور والطعام والشراب . ولو أخذنا بتعاليم ديننا لمـا تأخرنا عن صف أرقى الأمم ، ولمـا احتجنا الى تقليدها فيما اتخذت من نظم ، وفيما وصلت به الى مستواها الرفيع .

أنتم إن جريتم هذا المجرى أيها الخطباء فقد أدركتم رسالتكم وكنتم " أعصاب القرى " كما سماكم شاعر مصر العظيم ، بل كنتم أنجح الدعاة لدينكم ، وأبر الناس لدنياكم .

عبد السلام الشاذلى